الجزء الثالث

الفصل الأول

عودة

وقلبت البرقية شدهة وثلمت الحلقة التي تضمها ورفيقاتها وهي تتوثب عـن كرسيها المريح وتهتف.. وكفّت إقدام عن الغناء وأسرعت إليها واحتفى بها الجميع والاهتزاز يكاد يذهب بلبها:

- إنني مسافرة.. إنني مسافرة!..

ما تدري سلمى كيف أبرم القدر مصيرها بعد أن ظنت قد همد أمرهـا.. أبلج النهار بعد ليال غدرة وأومض الحلم بعد تبدد.. هكذا لا تـدري كيـف كيف!.. أمعجزة أم هفوة طبيب؟..

- إنني راجعة إلى أهلي إنني مسافرة!..
- متى؟.. متى؟..
- يوم الأربعاء!..
- ولكن هذا النهار هو يوم الأربعاء.. هتفت إقدام..
- حقا!.. لا شك أن أخي يعني الأربعاء القادم.. فالشمس تكاد تغيب الآن..

إنها لم تشعر يوما برقصة القلب كما شعرت تلك اللحظة.. تثب وتهز الأيدي التي امتدت لمصافحتها وتهنئتها.. وتنظر إلى الأرض بعين دمعة وبودها لو تلثم الثرى.. شفاه أمنا الأرض التي أعفتها من ضمها في غضارة الصبا..

كانت العيون تفيض بالدمع:

- إدع لنا يا سلمى!..

وسمعت هتافا من بعيد.. ليلى الممرضة منسدرة تعـدو علـى الطريـق اللاحب المنحدر تنادي عليها..

- سلمى روجي!.. قدم أخوك!.. وهو فـي غرفـة الطبيـب.. والـسيارة تنتظرك..

وأحست بقلبها يدفّ للطيران.. إن الفرح لموجع.. وضغطت موضعه وهو يرفرف بين ضلوعها.. كل جارحة في جسمها تنتفض.. وأسرعت لغرفتها ولحقت بها الزميلات يساعدنها، فواحدة تمسك لها بالمرآة الصغيرة لتمتشط بعجالة ويد مرتجفة، وأخرى تحضر لها من الخزانة ثيابها.. وثالثة ترش عليها العطر، وغيرها راحت تجمع لها شتات حوائجها..

ولكن لا يلبث أن يعبر ممرض يحمل حقيبة.. إن السيد عبد الرحمن يقول لك أن لا تأخذي شيئا.. وفي هذه الحقيبة كل ما تحتاجين إليه..

وقام القسم على قدم وساق.. ولم يبق فيه من تستطيع السير على قدميها إلاّ وتبعتها إلى البوابة الكبيرة لتوديعها.. وهناك رأت جمهرة من الرجال قد احتشدوا عند ضفتيها وغيرهم عاصبون بالسيارة.. وبعضهم أوزاع هنا وهناك.. كيف انتشر الخبر هكذا كالبرق؟.. وما دافعهم لهجر أسرتهم؟.. إن ما مر بها لغريب.. ولعلّهم لا يصدقون.. لربما في وداع شاف ما يبعث الأمل.. ورأت بين الحشد فاضل يرتكز على أحمد معتطفا عباءته السوداء الحريرية المقصبة وقد هده الأسى.. وعجبت كيف يأتلف الإثنان على تباين طبعهما.. إنه الحب يقرب الإنسان إلى الإنسان.. مسكين فاضل لقد عصر قلبها الأسى لرؤيته في تلك اللحظة مغرورق الطرف يتهاوى على كتف أحمد.. ما ذنبها إن ألم به هوى ما تدري به.. أتراهم جاؤوا.. ليشفق عليه المشفقون ويشمت به الشامتون؟.. ووجمت آسية عليه.. ماودت يوما أن تشغل بال أحد من هؤلاء المساكين.. فقلبها طافح بخيالاته ورؤاه.. ولكن ما تفعل بجموح النفوس؟.. لماذا راح يتعلّل ويؤمل وتزيده اللامبالاة صبابة رغم ما علم من أمرها؟.. إنهم مستعدون ليغرموا وليبرح بهم عدواء الشوق حتى لطيف يبدو من بعيد.. وكل العوامل تتضافر لتسلبهم القدرة على التحكم بمشاعرهم.. الفراغ والحساسية المفرطة، والخوف من الموت.. ففي الحب منجاة لهم ولو أنه عذاب فوق عذاب وسقم على سقم.. ولكن لم تكون هي بالذات؟.. وعزت نفسها أنه سينسى، فلا يدوم حزن صميم.. وسيشغفه هوى آخر..

ولمحت عبد الرحمن يهبط الدرجات برفقة الطبيب الأول فوثبت نحـوه آخذة بكلتا يديه تهزهما في شغف.. إنها لا تجرؤعلى تقبيله أمام الجموع..

وابتسم الطبيب وهو يمد يده:

- أنسيتنا؟..
- عفوا يادكتور.. لم أره منذ ثمانية أشهر.. إنني ذاهلة.. بماذا توصيني قبل العودة؟.. لقد ملأتموني روعا قبل أسبوع.. إنني لا أصدق ما أنا فيـه..

وضحك:

- لقد أخبرت أخيك عن كل شيء.. وأهم ما في الأمر أن عليك أن تؤخري موضوع الزواج عامين على الأقل..
- لا بأس!.. ولكن.. ألستُ في حالة شافية؟..
- بكل تأكيد.. غير أن الإجهاد لا يلائمك حتى تستكملي قواك..

وكان آخر وجه ودعها إقدام.. في ابتسامة تحمل كل خفة روحها وحرارة وجدانها، وتمنّت لها سلمى الشفاء العاجل، وهمست لها بتمنياتهـا أن تبلـغ آمالها وأحمد عن قريب فتنهدت وغامت عيناها:

- ثلاث سنوات يا سلمى أترى الله يستجيب؟.
- لا تيأسي يا إقدام من رحمة الله.. إنك بعينيك ترين الأعاجيب كل يـوم.. نحن نقدر وتضحك الأقدار.. لا تضنّي بأخبارك علي يا أختي..
- وماست السيارة مترسلة بين غمار الجموع وعلا الهتاف:
- مع السلامة يا سلمى!..

وضحكت وهي تمد رأسها من النافذة:

- اكسري قربتي يا إقدام حتى لا أعود!..

وراحت السيارة تنجد طورا وتسلك تارة غورا.. ياللفرح الطـاغي!.. إن سلمى تنيب إلى الوطن العزيز.. وفي الوطن حبيب.. وأغمضت عينيها تحلم باللقاء..

ووصلت القدس قبل عصر اليوم التالي، وكان أول ما فعلتـه أن مـرت بالمزين لتصفيف شعرها في تسريحة جذابة قبل أن تعود الى بيت جالا..

وكان استقبالا حافلا هناك.. كأنما هي قائد مظفّر يعود من ساحة الوغى.. اشترك إخوتها برئاسة "جوتا" جارة بولونية، في تـزيين المنـزل بـالورق الملون.. وصنعت " نينا"، فتاة أمريكية الجنسية "بجالية" الأصل فـي عمـر سلمى أنواعا عدة من الكعك بمساعدة الوالدة..

وكان الجميع محتشدين في المنزل يرقبون عودتها.. وتعرفت سلمى على جارتيها الرقيقتين اللتين طالما حدثت عنهما في الرسائل التي تردهـا مـن أهلها.. جوتة الشقراء الضئيلة الجسم الموسيقية اللهجة، الرشيقة الحركـات، وطفلتها الرائعة "دانكا" في الخامسة من عمرها.. ونينا السمراء الحسناء ذات الطول الفارع والقوام الرشيق ترتدي بنطلونـا، ويتبعهـا كلباهـا الـذئبيان العزيزان..

وأخذوا يدورون بها في الحديقة المتخايلة بأزاهيرها، هندس أديب وخالد أحواضها، ورصفا شعبها بالحصى.. وتنافس الجميع من الوالد حتى أصـغر الأبناء في زراعتها وسقيها لعودة سلمى..

وراح يتجاذبها الجميع يشهدونها أحواضهم.. ووقفت مليا أمام أحـواض القرنفل النامية.. وهتفت رجاء :

- إنها لي.. كل أحواض القرنفل لي..

ولما سألتها سلمى لم اختارت تلك الزهرة بالذات أجابت وقد التمعت عيناهـا الحوراء:

- إنها معمرة.. وعندما تهرم لا تناثر أوراقها، ولا يأسن ريحها، بل تضم نفـسها بهدوء وتعود إلى طفولتها الأولى..

وأحست سلمى بما يعصر قلبها.. إن رجاء هي الوحيدة الشاحبة بين إخوتهـا، والتي لم يزد هواء بيت جالا من وزنها.. ولما استفسرت والدتها عـن الـسبب.. أجابتها:

- ما جفّ لها دمع في غيابك.. وساءت صحتها، واضطررنا لتأخيرها عن المدرسة شهرين خلال الشتاء..
- يجب أن تعتنوا بغذائها، وصحتها..

- أنت تعلمين.. كان راتب عبد الرحمن جميعه يذهب للمصح.. ويـستدين مثله كي نعيش!..

واقتربت رجاء فسألتها سلمى ممازحة:

- أتراك قد اشتقت لي يا رجاء كما اشتقت لك؟..

- وتطلعت إليها بعينين فيهما أسى ودهشة وعتاب:

- سلي غرفة الاستقبال كم صلّيت لأجلك، وكم بكيت بدموع غزيرة.. منـذ أسبوع عاد عبد الرحمن وقرأت في وجهه أنك لست على ما يرام.. فهذا الازرقاق لا يبدو على وجهه إلاّ في الأزمات الخانقة.. فأحسـست بمـا يشبه الغيبوبة.. وصلّيت.. لست أدري كيف!.. بمـشاعر ليـست مـن مشاعر هذا العالم.. وهتفت من كبد حرى : "رباه!.. إن قـدرت علـى سلمى سوءا فافدها بي.. لقد برح بي العذاب، ولا أقوى على الحياة لحظة واحدة من دونها"..

واغرورقت عينا سلمى بالدموع!..

وعادوا إلى المنزل وغنّت جوتا وغنّت نينا وغنّت رجاء، كل منهن فـي لغة.. إن الوجود نفسه يغني، وكل ما فيه من لغة الغناء الشجي العذب..

ويدخل هشام حانقا:

- إن دانكا لم تدع زهرة في الحديقة إلا قطفتها!..

ولم تلبث أن دخلت دانكا وهي تمسك بأطراف ثوبها الفضفاض القصير، كي لا تقع الزهور التي قطفتها وتنفضها في حضن سلمى وهي تهتف بالعربية:

- كل هذا لسلمى.. دانكا تحب سلمى كثيرا، وهي ذاهبـة لتـأتي بزهـور كثيرة!..

وتتوثب ممراحة كالفراشة.. وتحاول جوتا تأنيبها فتشير إليها سـلمى أن لا تفعل.. إن الزهور لا تصلح لتُجعل باقة، فكلها قد قطفت من كأسها.. فتقـول جوتا:

- نجعلها عقدا كبيرا من الزهر لسلمى..

وتضحك سلمى:

- لقد خطر ببالي خاطر آخر.. هل تذكرين يا ماما قصة "أنا الورد وبنـت الورد"؟.. كانت من أحب القصص إلي في طفولتي.. إنها ياعزيزتي جوتا عن فتاة تلبس ثوبا من الورود اليانعة، ثم يعشقها ابن الملك ويتزوجهـا.. وبي رغبة أن أتمثل المشهد، وسأعلّق هذه الزهور علـى ثـوب دانكـا ونكللها بها، ونجعلها رمزا للصحة الدائمة.. لقد اشتريت آلـة تـصوير أحضرتها معي فيها صور لم تُلتقط بعد، وستكون ذكرى رائعـة لـدانكا حين تكبر.. كانت دانكا ذاهبة آيبة تحمل جماعات الزهر وتهتف وتشير بحركات رشيقة لا تقدر عليها أقدر ممثلة، وعيناها تتوهجـان بالغبطـة البريئة..

واشترك الجميع بصنع الطوق والإكليل وتزيين دانكا في عاصفة من الضحك والنكات وخليط من اللهجات واللغات..

وكانوا على المائدة، وسلمى مطوقة وقد احتضنت دانكا بإكليلها وثوبها العجيب الذي شبكت عليه الزهور، تلتهم قطعة من الكعك حين طرق البـاب وعلمت أنه.. أحمد..

ولما حاولت أن تفلت الصغيرة تعلّقت بها فحملتها ضاحكة "لا بـد أننـا سنشدهه بهذا المنظر الطريف!.."

لقد ذهل وهو يضغط يدها "سلمى!.. لا أصدق.. ما كنت لأعرفـك لـو رأيتك في الطريق!.."

وسألته بدلال:

- أتراني لم أرق لعينيك؟..
- ماذا؟.. لقد أصبح لك قوام "فينوسي"..

وتململت دانكا بين ذراعيها، وقد لقيت إهمالا من أحمد فهمست له سلمى:

- ألا تقبل دانكا ضيفتنا الغالية التي قطفت كل أزهار الحديقة؟..

وقبلها بغير حرارة.. وأحست دانكا بذكائها الوقّاد أنها ليست مرغوبا بها، فانسابت على عجل وعلى محياها طيف سحابة وانسدرت تعدو إلى أمها..

ونزعت سلمى طوق الزهر وقلّدت أحمد به.. وعادت تهز كلتـا يديـه باسمة..

- لقد أغضبتها!.. ألا تحب الأطفال يا أحمد؟..
- لا شك أنني سأحب أطفالنا..
- إنني أحب الطفولة بغير شرط.. ويحبني جميع الأطفال!..

ولم ينبس بحرف.. بل ضمها بلهفة:

- ألست مشتاقة يا سلمى، حبيبتي سلمى؟.. وحاول تقبيلها فأفلتت:
- أحمد!.. كيف تسمح بهذا؟..
- ثمانية أشهر أيتها الكافرة!..
- إنك لا تفكر بالعواقب..
- لست أخشى أحدا.. ووالله إني لأجرؤ على تقبيلك أمام الجميع.. ستكونين زوجتي هذا الأسبوع..

وصمتت سلمى وهي تعض شفتها السفلى.. ونزع طاقة الزهر وارتمى على مقعد مغضبا، وقد عقد يديه مسجدا ناظريه إلى الأرض:

- إنك لا تشتاقين لأحد.. لا.. لم تذوقي كيف يهصر الشوق الإنسان!..

وتلمس كتفه برقّة:

- بلى.. أنا مشتاقة يا أحمد.. ولكن!..
- كفى لن تقنعيني بغير هذا.. أي لكن هذه؟..

وأجابت أذية بتصرفه:

- لا لكن.. آسفة.. ماكنت أحسب لقاءنا هكذا يكون!..
- من شوه اللقاء سواك؟..
- ليس للفتاة الحق في إبداء شوقها!..
- وحتّى بعد طول غياب، وقد برح بحبيبها الشوق؟..
- نعم.. فالخطوبة خطوبة ولا شيء أكثر..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة مريرة:

- هكذا؟.. وهمست برقّة:

- أحمد!.. انظر إلي يا أحمد.. أتعلم متـى يبلـغ الرجـل مرتبـة الحـب الصحيح؟.. حين يعفّ أن يقف بحبيبته موقفا يغض فيه طرفها خجلا من أحد، وحتى منه ولو بلغ شوقه المدى..
- أين قرأت هذا؟.. إنني لم أفكر يوما في شيء منه.. إنّه اللقاء.. مـشاعر اللقاء.. ألم يقبلك والدك وأخوك؟.. أما أنا فتكبت مشاعر فرحتـي.. وأي منها مشاعر الوالد والأخ!..
- أحمد!.. أنظر إلي..

ولا تقوى على أن تتم عبارتها لدخول عبـد الـرحمن.. وفـي لحظـة يتصنّعان الابتسام والمرح.. ويأخذ الحديث مجرى جديدا.. عن الرحلـة وغيرها.. ويهمس أحمد لعبد الرحمن:

- أحسب أني وسلمى سنبلغ الهدف قبلكما.. ويبتسم، ولكن الإبتسامة تتلاشى فجأة على شفتيه حين يرد عليه عبد الـرحمن بـشيء.. وينظـر إليهـا مستوضحا.. فتهز رأسها، وتلمح السماء بنظرة عجلـى آسـية وتبتـسم مغرورقة الطرف، فيفهم..
- أهكذا؟.. وتتنهد:
- نعم هكذا شاء القدر..

ويعود إلى نظراته، الود ممزوج بالشجى:

- لا بأس أنتظر!.. وتهمس له بما لا يسمعه غيره:
- أواه يا أحمد.. أتراك تحاول أن تفهمني وتساعدني؟..
- سأحاول ياسلمى..

ويعلوصوتها قليلا بينما يذهب عبد الرحمن إلى الباب وقد طرق طرقة خفيفة ليعود بصينية الشراب والكعك..

- يقال أن أسعد زوجين من تطول خطبتهما.. وتتشاجب أرواحهما بالتفاهم قبل الزواج.. فهلم نرتاد عوالم الروح الحافلة يا أحمد خلال هذين العامين..

ويضغط يدها.. ويتبادلان قبل النظرات..

استقبلها عمها في اليوم التالي عند الباب بلباسه العـسكري، فبـدا مهيبـا مشرق المحيا، يتألق نضارة.. وتبلّج ثغره عن أسنان ناصعة فـي ضـحكته العريضة فقبلت يده بإجلال، وضمها بلهفة مقبلا رأسها وهو يقول:

- نحن بانتظارك أنا والجزار منذ ساعتين.. يجب أن تثبي فوق الكبش وهو يذبح حتى يستوفي النذر شروطه.. أنت الملومة لتأخر مأدبتنا اليوم، ولن أسمح لك بعجالة مهما استبد بك الجوع عقابا لك..

وراح يهزها هزا وهي تضحك وتعبث بالمنديل الملون الـشفيف الـذي تهدل على رأسها وكتفيها:

- آسفة يا عمي!..

ووصلت والدتها فحيته بغير أن تحسر نقابها أو تمد يدها.. وتتالت بقية العائلة، وأخذوا يتبادلون وعمها التحيات.. أما هي فراحت تتأمل الجزار وقد شحذ السكين.. والكبش وقد تقدم منها فرحا يثغو، فأخذت تمسح على فروته وفي أعماقها كآبة خرساء.. ولم تلبث أن ارتعدت الوداعـة فـي عينيه هلعا، وتحشرج ثغاؤه خوارا، وأحست سلمى بما يشبه الفجيعة في فؤادها وهي تنظر الى ذلك المخلوق البائس في لوعة استغاثته واستيئاس مقاومته ووهن قواه..

وحين انتصب على المائدة وقد تبخّرت منه رائحة تفغـم الخياشـيم، وترقص المعدة.. وعندما مزقته الشوك والسكاكين ونهشت هي متلـذذة فلذة منه وقد استبد بها الجوع، شعرت في فؤادها بشكّة كوخزة إبرة لـم تلبث أن غارت كطعنة خنجر.. لم تكن تفكّر من قبل ما تكلّفـه لقمتهـا الشهية من قسوة وحشية.. وارتسمت فجأة في مخيلتها صورة..

في ليلة داجية الظلمة مذعورة أفاقت يرجها كبندول ساعة من غفوتها المخدرة بعذب الأحلام، مواء قطة حاد هلع رهيب يشق الـسكون، ثـم صيحات انتصار غريبة مفزعة موحشة، تكمش أجرأ قلب في الحلكـة، ويعود المواء أعنف وأفجع يستغيث ولا مغيث ثم يتلاشى في عواء سرب من "الواوية" الهانيء بوليمته الفاخرة..

ويستجمع الكلب قواه، وقد تكوم على نجاف النافذة قرب سريرها حيث جعل مقره إثر معركة كسر فيها أعداءه الكلاب رجله التي لم تبرأ بعـد ويعوي عواءه السليط، دون أن يجرؤ على ترك النافذة فيـ ولي سـ رب الواوية الأدبار ويتركون فريستهم الممزقة المنهوشة لتعرف فيها في اليوم التالي قطتها العزيزة..

إن القصة الجارحة التي شعرت بها وهي تتأمل قطتهـ ا، شـ بيهة بـ ذلك الشعور يطغى عليها أمام المائدة.. إنها لا ترى بين نفسها وسرب الواوية فرقا..

وحوش.. كل من على الأرض!..

ضحكت مرة والمعلمة تشرح لهم ديانة "الهندوس" وعقيدتهم في وحدة الوجود، وتقديسهم الروح في الحيوانات.. غباء، سخف، ضيق عقل.. هذا ما نعتتهم به..

آه.. فهمت الآن.. فهمت العاطفة الحساسة الإنـ سانية الرفيعـ ة التـ ي يتمتعون بها.. فوالله إن لفي عقائدهم لعنصر حق جدير بالتأمل..

وابتعدت بكرسيها إلى الوراء وقد استعصت فـ ي بلعومهـ ا اللقمـ ة.. وتماغصت لتعلل انقطاعها عن الطعام ولما تشبع.. وانتحت وحدها لتفكّر وتتأمل وتقرر أمرا.. وعبثا حاول بنات عمها أن يعرفوا سر انقلابها..

وراحت تتساءل في الأيام التالية وهي مستلقية على كرسيها المـ ريح في حديقة المنزل تظللها أغصان ليمونة تشابكت وأغـ صان كمثـ رى.. فلديها الفراغ لتشعر بوجودها، ولتفكر في سر هذا الوجود الإلهي..

- أليس مبدئي أن لا أعتدي على أحد ولا أسمح لأحد بالاعتداء علي؟..

لقد كفّت في تلك الأيام عن أكل اللحوم واكتفت بما تنبت الأرض.. ومـ ا لمح أحد التطور الفجائي سوى رجاء.. فجلست يوما قربها وساءلتها السر في هذا فأجابت:

- لا شيء يا أختاه.. كل ما في الأمر أنني لا أشعر بارتياح لأكل اللحوم.. إن هذا يعارض مبدئي في أن لا أعتدي علـى أحـد ولا أسـمح لأحـد بالاعتداء علي.. وأجابت رجاء دهشة:
- ولكن يا أختاه لم يحرم الدين علينا هذا..
- أعلم يا أخية.. ولكني لا أستطيع إلاّ أن أفكر.. أليس للحيوان روح؟.. ألا يتألّم كما نألم، ويفرح كما نفرح، فكيف أبيح لنفسي إزهاق روح لأحيـا على انقاضها؟..
- يا إلهي وكيف تعيشين؟.. يجب ألاّ تنسي يا أختاه أنك ناقهة وأنّك بحاجة إلى أوفر غذاء..
- إن في الثمر وفيما تنبت الأرض لغذاء كاف لنا..
- لا أحسب أني أستطيع أن أوافقك..
- يا أختاه لست أبغي أن يقلدني أحد.. ها أنذا كما ترين.. ربمـا خطئـت الصواب، ولكني لا أستطيع أن أخالف ضميري..

وصمتت بغير أن تجيب.. وكان يبدو من عينيها السوداوين الوقّادتين أنها تفكر في هذا الأمر العجيب الذي لم يخطر لها ببال لترى وجه الصواب فيه..

وما راع سلمى الاّ ورجاء تنتزع حبة كمثرى ناضجة من فرعها فيهتز.. وتقول:

- وما يدريك أن هذه الشجرة لا تتألم الآن وقد حكمت بالموت علـى فلـذة كبدها؟..

وتشده سلمى لبداهة الصغيرة تفحمها بمثل هذا السؤال.. حقا ما يدريهاّ!.. ألا ترى إلى الزهرة وقد ذوت بعد اقتطافها، وإلى الفرع وقد يبس بعـد كسره؟.. إن ما يولد وينمو ويموت يشعر وما يشعر يتألم..

ألا ما أصعب مبدأ كمبدئها تحقيقه عمليا، وخصوصا لإحساس يكـاد يكون إرهافه هوسا!..

وضاقت ذرعا بخواطرها.. ماذا تفعل إذن؟.. أتُضرب عـن الطعـام فتموت جوعا؟.. وهل وجود الحيوان والنبات خير من وجودها؟..

وهتف في أعماقها صوت مستهزئ: أردت أن أخبرك أن في هذه الحياة لا غنى عن الإعتداء.. هذه سنّة الطبيعة!.. وأجابت:

- حقا ما قلت يا أختاه فما يدريني؟.. إنّه لخيرلي من أن أتألم لحيوان أو نبات أن أفكّر بالأجناس البشرية تذتبح، وقد ضاقت بها الأرض فكيف لو احتلّت الحيوانات نصف الكرة الأرضية؟..

* * *